مجلة جامعة الملك سعود، م 25، الآداب (2) ، ص ص 221-230، الرياض (2013م/ 1434هـ)

الدراسات البينية وتحديات الابتكار

سعد بن عبد الرحمن البازعي

أستاذ الأدب الإنجليزي سابقاً، قسم اللغة الإنجليزية وآدابها،

كلية الآداب، جامعة الملك سعود، وعضو مجلس الشورى، المملكة العربية السعودية

الكلمات المفتاحية: العلوم الإنسانية، الدراسات البينية، المنهج، المعرفة.

ملخص المداخلة: تنطلق هذه الورقة لتفكيك الدراسات البينيّة واللابينيّة، من مقولة جامعة وهي: "التخصص دون رؤية شمولية أعمى، والرؤية الشمولية دون تخصص جوفاء" مؤكِّدةً على أهمية التكامل بين التأمل الشامل والتخصص الدقيق لقراءة الأدب قراءة متدبِّرة ومتأوِّلة لا تركن للجاهز، وتتجاوز مقولة الشمولية إلى مقولة التداخل بين العلوم والمزاوجة بين مختلف فروع المعرفة ومناهج الوصول إليها وما تحمله من قوائم مصطلحية وسجلات مفاهيمية.

"التخصص دون رؤية شمولية أعمى، والرؤية الشمولية دون تخصص جوفاء". هكذا يؤكد إرنست روبرت كيرتيوس، الباحث الألماني صاحب الكتاب الشهير "الأدب الأوروبي والعصور الوسطى اللاتينية" في معرض تأكيده على أهمية التكامل بين التأمل الشامل والتخصص الدقيق لقراءة الأدب الأوروبي قراءة أكثر صحة وعمقاً. (Ernest Robert Curtius، 1953)، ومن يتأمل العبارة في سياقها سيجد أنها تتضمن ما لا يقتصر على التكامل الذي يشير إليه كيرتيوس وإنما تتعدى ذلك إلى ألوان أخرى من التكامل أو المزاوجة بين مختلف فروع المعرفة ومناهج الوصول إليها وما تعج به تلك الفروع والمناهج من مفاهيم ومصطلحات.

في كتابه المشار إليه، يسعى كيرتيوس إلى تحقيق

هدف ثقافي أو حضاري بالأحرى يعلن عنه العنوان. فالكتاب الذي اشتغل عليه مؤلفه إبان الحرب العالمية الثانية، الحرب التي عانى منها المؤلف شخصياً أثناء وجوده في بلاده ألمانيا، يسعى لتأكيد وحدة أوروبا من خلال استنهاض أسس تلك الوحدة فيما يسميه "العصور الوسطى اللاتينية"، أي الفترة التي سادت فيها اللغة اللاتينية لتربط الفترات التاريخية الأدبية بشكل خاص مؤكدة أن التقسيمات التاريخية الشائعة بين عصور ظلام وعصور وسطى غير صحيحة. أراد المؤلف أن يقاوم الآثار المدمرة للحرب التي تسببت بتشتيت الوحدة الأوروبية، وذلك بالتذكير بوحدتها الكامنة.

التكامل بين المناهج يمتد في كتاب كيرتيوس إلى تكامل بين العلوم ينهض على استعادة أسس المعرفة اليونانية التي عرفتها أوروبا ثم استعادتها، كما يقول عبر إسهامات حضارية أخرى، منها الإسهام العربي الإسلامي. فهو يذكر بمفهوم الفنون أو الآداب السبعة "the seven liberal arts" التي وضعها في الأساس هيبياسالإيلي، أحد السفسطائيين اليونان، لتكون مناهج للتعليم ورفضها أفلاطون متحيزاً إلى الفلسفة ،لكنها سادت بعده عبر تبني أوروبا إياها فيما بعد في مناهج التعليم الجامعية إبان العصور الوسطى. تلك الفنون أو الآداب هي: النحو والبلاغة والجدل والحساب والهندسة والموسيقى والفلك.

هل في هذا ما يستثير دلالات معينة في ذهن القارئ؟ هل في عبارة "الفنون أو الآداب السبعة"؟ ما يذكر بكلية اسمها "كلية الآداب" التي تعرف بالإنجليزية بـ College of Arts؟ الربط واضح هنا، لكنه لم يكن واضحاً بالضرورة في ذهن من اختار تلك التسمية لكلية جامعية تسمت بها في فترة مبكرة من عمر النهضة العربية الحديثة، أقصد كلية الآداب بالجامعة الأهلية في القاهرة قبل حوالي مائة عام، تحديداً عام 1908. ذلك أن الكلية والجامعة أسستا على النمط الغربي الإنجليزي حيث توجد كليات للآداب والفنون هي امتداد في حقيقة الأمر لذلك التاريخ اليوناني القديم الذي يجمع "الآداب" أو "الفنون" تحت مظلة كلية واحدة. ومن المهم في الأمر الوحدة التي رآها اليونانيون حين ضموا ما صار فيما بعد علوماً متفرقة في أقسام متباعدة وكليات مختلفة بل وجامعات منعزل بعضها عن بعض.

لقد ورثنا مع التركة الأوروبية التركة اليونانية/ اللاتينية في مجالات كثيرة منها الفنون السبعة، وإلى جانب ذلك التركة الحضارية العربية الإسلامية الخاصة بنا. لكن هذه التركة الأخيرة لم تؤثر

كثيراً في شكل البنية التربوية والبحثية أو، بتعبير آخر، شكل الخارطة التي توزعت عليها في منطقتنا العلوم والمعارف والفنون ضمن مؤسسات تعليمية وبحثية وأفرع وحمولات معرفية ونظرية لتلك المؤسسات على شكل أقسام ومناهج ومصطلحات. ما لم نرثه من التركة الأوروبية هو القدرة المبدعة على إعادة النظر في تلك الخارطة من العلوم والمعارف والمناهج والمصطلحات التي ظلت أوروبا تعيد النظر فيها وتنتج المعرفة في ضوء مساءلات دائبة وإعادة تشكيل للخارطة والأسس التي بنيت عليها. تحولت الخارطة إلى ثوابت يصعب إعادة النظر فيها على النحو الذي يؤكد أن ما نسميه "ثوابت" في ثقافتنا العربية الإسلامية لم يقتصر على المقدس ،وإنما تعداه إلى الدنيوي القابل - كما يفترض - لإعادة النظر بل الداعي إلى ذلك باستمرار. بل إن الأمر يتعدى القدرة على إعادة النظر في ما ورثنا إلى غياب الوعي لدى الأكثرية بالأسس التي بنيت عليها الخارطة المعرفية وعناصرها، ولا غرابة فالقدرة على إعادة النظر في ما صار ثابتاً يقتضي أولاً الوعي بالأسس التي قام عليها البناء.

إعادة النظر هي ما ندب الألماني كيرتيوس نفسه له في كتابه السالف الذكر في لحظة من لحظات التأزم الكبرى التي تمر بها الشعوب والحضارات، فسعى إلى التذكير بوحدة العلوم الأوروبية والأسس الفلسفية التي نهضت تلك العلوم عليها، مثلما سعى قبله الفيلسوف الألماني أيضاً هوسرل، بعيد الحرب العالمية الأولى، وعلى مستوى مختلف إلى نقد تلك العلوم واستعادة الفلسفة على خطى ديكارت مذكراً بما أسماه القوة الكامنة لأوروبا التي تجعلها أنموذجاً يحتذيه العالم دون أن تحتذي أحداً. (Edmund Husserl: 157)، لكن على عكس هوسرل، لم يتردد كيرتيوس في الاعتراف بأن ما يعرف بالحضارة الغربية هو في نهاية المطاف مزيج من حضارات أخرى لم يكن لأوروبا أن تنهض بدونها، فذكر الإسهامات العربية واليهودية والفارسية بوصفها مكونات أساسية في ثقافة العصور الوسطى الأوروبية التي ما تزال، حسب أطروحته، أساساً للعلوم التي تطورت في رحابها.

ليس من السهل أن نحاول هنا تقييم الأثر الذي تركته مساعي مفكرين وباحثين مثل هوسرلوكيرتيوس، وغيرهم كثير، على مسار العلوم في الغرب، غير أن من الواضح المؤكد أن تلك العلوم قد سارت في خط تصاعدي وشديد الكثافة هو لب الحضارة المعاصرة، وأن ذلك الخط قد تضمن تعالقات أو تداخلات كثيرة بين العلوم أدى إلى نشوء ما يعرف

اليوم بالدراسات البينية Interdisciplinary studies، أي الدراسات التي تلتقي في إطارها علوم مختلفة منها العلوم الإنسانية والاجتماعية (التي تعنينا هنا، وإلا فالدراسات البينية قائمة بين مختلف العلوم)، وهي علوم تعد في الأساس مستقلة بعضها عن بعض. فعلم النفس الاجتماعي وعلم الاقتصاد السياسي وعلم الاجتماع الأدبي وعلم اللغة النفسي، إلى غير ذلك من مناطق امتزاج وتداخل، هي أمثلة على علوم تتطور ضمن منطق داخلي من جهة ومنطق اتصال خارجي ومعرفي من جهة أخرى، بمعنى أن الاحتياج البحثي وأسئلة العلم نفسها تقود تلقائياً إلى مناطق قريبة، وفي الوقت نفسه فإن بعض الباحثين يسعى إلى التجريب بمزاوجة المناهج والاستفادة من معطيات حقل بحثي آخر. هذا إلى جانب أن التداخل بين العلوم يقف شاهداً على وحدة العلوم التي أكدها هوسرلوكيرتيوس من منظورين مختلفين.

السؤال هنا ليس بشأن ما آلت إليه العلوم في الغرب، وإنما ما آلت إليه في منطقتنا العربية، السؤال الذي تسعى الملاحظات التالية إلى طرحه ضمن بعض المعطيات المستقاة من مصادر متعددة. مع استيرادنا للعلوم على اختلافها، وما حققناه من تفاعل معها ربما أسفر عن بعض الإنجازات التي سنختلف في تقييمها، استوردنا أيضاً ما حدث من تداخل بين العلوم، فأنجزت أبحاث وأعمال كثيرة في المساحات الممتدة بين العلوم على اختلافها والإنسانية منها خاصة. لكن التداخل المشار إليه اعتوره – فحد من تأثيره وأهميته – وجهان بارزان من وجوه النقص:

1– عدم تحول التداخل، –أي الدراسات البينية–، إلى مساحات تحظى بالتشجيع والدعم الأكاديمي والعلمي على النحو الذي يكسر حدة العزلة التخصصية للعلوم الإنسانية فيحدث نوعاً من السيولة التي تدمج المعرفة ومناهجها ومصطلحاتها. فليس ثمة مختبرات أو وحدات أو كراسي تدعم هذه التوجهات، وإن وجدت فهي ضئيلة الحجم متواضعة الحضور.

2– ضعف الوعي أو الاستبصار بالأسس الفلسفية الإبستمولوجية (المعرفية) التي تكمن خلف حالة العلوم وفي بنيتها سواء في شتاتها أو في تداخلها، بمعنى ضعف الوعي بالتأزم الذي مرت به وتمر به العلوم على الشاكلة التي نرى عند هوسرل أو كيرتيوسكل من زاويته.

الوجه الأخير من وجوه النقص يكاد يسم الثقافة العربية بشكل عام في تفاعلها مع الآخر ليؤكد سمة استهلاكية تسرّع عملية التبني للجديد أو لبعضه، وتقلل من إمكانية التمعن في خصائصه وشروطه. ومع

أن الجديد في عملية الاستهلاك تلك لا يبقى على حاله حتماً نتيجة لدخوله في معطيات ثقافية ومعرفية مختلفة، فإن عملية التحول تبقى عملية تلقائية تحدث داخل المنتج، علماً كان أم منهجاً أم غير ذلك، لكنها لا ترتفع إلا في حالات قليلة أو نادرة إلى مستوى الوعي العقلاني النظري المستبصر بطبيعة التفاعل، بمعنى أن العلم يتغير وينتقل التغيير ضمن عملية الاستيراد، ولكن التغيير نفسه لا يتحول إلى وعي مكتسب وتراكمي من الناحية النظرية. فمجيء نظرية جديدة قد يؤدي إلى تبنيها وتطبيقها، لكنه لا يعني في الغالب وعياً بالظروف المنهجية أو الاحتياجات المختلفة التي أدت إلى ظهورها. هذا إلى جانب ضعف الوعي بصلة النظريات بسياقاتها الثقافية التي أنتجتها وجعلتها أقدر على العمل ضمن تلك السياقات.

من هنا فإن الدراسات البينية لا تأتي نتيجة احتياج علمي أو معرفي بقدر ما تنمو نتيجة لكونها حدثت هناك، أي أن حدوثها هناك يستلزم حدوثها هنا. يقرأ الباحثون عن علم النفس اللغوي أو علم الاقتصاد السياسي أو غير ذلك فينقلون المعلومة بأبحاثهم أو يترجمون الكتب التي تحملها فيتعرف المختصون والطلاب لينتقل الجهاز النظري والمعطيات المعلوماتية، لكن ما لا ينتقل هو الدافع الأساس وراء امتزاج العلوم، وإن انتقل على نحو فردي فإنه لا يتحول إلى شاغل فكري وبحثي أكاديمي تؤمن به المؤسسة الجامعية أو البحثية فتبحثه لاستكشاف الحاجة إليه لتنتهي إلى تأصيله وتوسيعه أو نقده وتبيان ما قد يعتوره من مشكلات. والطريق إلى ذلك هو الندوات والمؤتمرات والأعداد الخاصة من الدوريات.

ورب قائل يقول إن ما أشير إليه ليس مشكلة الدراسات البينية فحسب وإنما هي أعم وأشمل. إنها مشكلة العلوم نفسها بل تلقي المعرفة بأكملها. وهذا صحيح، فالدراسات البينية تفريع على أصل، وإن اعتل الأصل اعتل الفرع بالضرورة. لكني أتصور أن الوعي باعتلال الفرع قد يرفع حدة الوعي باعتلال الأصل، منبهاً إليه وموضحاً وجوه نقصه والحاجة الملحة والدائمة إلى مسائلة، بل استجواب الأسس المعرفية أو الفلسفية التي تنهض عليها العلوم أصولاً وفروعاً.

لهذا تأتي الدعوة إلى توجيه الانتباه إلى الدراسات البينية، – التي بناء عليها كتبت هذه الملاحظات – مبادرة مميزة في مسيرة التفاعل العلمي والثقافي مع الآخر، فهي قبل أن تكون حاجة عملية تربط أقسام كلية أو جامعة وتصل بين علوم ومناهج ومصطلحات، هي قبل ذلك حاجة حضارية كبرى

لإعادة النظر في مسيرة البناء الأكاديمي ككل. إعادة النظر أو المساءلة هذه مهمة نهض بجانب كبير منها مفكرون وأكاديميون في ما بات يعرف بالعالم الثالث ضمن الدراسات ما بعد الكولونيالية التي تجاوزت هدفها الأساس وهو دراسة وضع الآداب في المرحلة التي أعقبت الاستعمار والتأمل في آثاره لتصبح نوعاً من إعادة الغربلة التي تستجوب البنى المؤسساتية التعليمية والبحثية: ما الحاجة إلى وجود التخصص أو القسم الفلاني في الجامعة؟ وإن تبينت الحاجة إليه فهل شكله الحالي هو الأكثر ملاءمة واحتياجاً؟ والسؤال عن التخصص يقود تلقائياً إلى السؤال عن الكليات الجامعية، ما هو موجود وما هو غائب وينبغي أن يوجد، إلى غير ذلك من تساؤلات اقتضتها المتغيرات التي شملت دولاً وقعت يوماً تحت تأثير الاستعمار، والاستعمار بطبيعة الحال ليس مجرد احتلال عسكري وحكم سياسي فحسب، وإنما هو هيمنة حضارية تخنق نوافذ الاختلاف والتجديد.

أحد الذين وقفوا عند معضلات التبني غير الواعي لما أنتجه الغرب من مؤسسات علمية وتفريعات تخصصية الكاتب الكيني نغوجي (أو نغويي) واثيونغو NgugiwaThiongo، الأستاذ حالياً بجامعة كاليفورنيا إرفاين، الذي سبق له أن درّس في جامعات نيويورك وييل وغيرها، كما أنه الكاتب الذي ثار على وضع التعليم والإبداع في بلاده من قبل ودفع الثمن بالسجن والنفي منذ سبعينيات القرن الماضي. يقول واثيونغو إن كينيا كانت من البلاد المستعمرة سياسياً وثقافياً، وتمثل الوجه الثاني، وهو الأخطر، للاستعمار في التبني السريع للجاهز من البنى الأكاديمية الغربية، كما في تبني دراسة الأدب الإنجليزي بوصفه الأدب الجدير بالدراسة وذلك على حساب الآداب المحلية. وكانت ردة الفعل التي تبناها واثيونغو وعدد من أكاديميي ومثقفي كينيا هي تحويل قسم اللغة الإنجليزية وأدبها إلى قسم للأدب بشكل عام، أي تخطى حدود التخصص التقليدي في أدب إنجلترا والاتجاه إلى الآداب العالمية ككل والأدب بوصفه أدباً بشكل خاص بغض النظر عن اللغة التي كتب بها.[1] وإذا كان ذلك التخطي لا يدخل على وجه التحديد ضمن ما يعرف الآن بالدراسات البينية، فإنه يؤكد أهميتها من حيث القصد والمنهج أو الروح، أي من حيث هو مسعى للتفكير المختلف النازع إلى الابتكار بتجاوز حدود التفكير الأكاديمي المفروض من قبل ثقافة أخرى.

---

(1) ينظر كتابي واثيونغو "تحرير العقل من الاستعمار" و"غلوباليكتيك": NgogiwaThiong'o, *Decolonizing the Mind: The Politics of Language in African Literature* (London: James Currey, 1981); *Globalectics: Theory and the Politics of Knowing* (New York: Columbia UP, 2012).

ما تحتاجه الدراسات البينية هو تلك الروح النازعة للتفكير المختلف، مما يعني النظر في ربط العلوم أو التخصصات المختلفة حسب التجارب العالمية للإفادة منها، مع عدم الوقوف عند تلك الأنماط من الربط سعياً إلى أنماط جديدة، ليس لأنها جديدة أو مختلفة ولكن لأنها قد تكون الأكثر ملاءمة لاحتياجات علمية وبحثية نابعة من صميم الأوضاع الثقافية والاجتماعية، وأكثر كفاءة في التعامل معها. ذلك اللون من التفكير يصعب أن يتطور ويؤثر دون مرتكز فلسفي مؤداه أن البنى والأسس التي قامت عليها العلوم، كل العلوم إنسانيها وطبيعيها، متحيزة وإن جزئياً لأنساق ثقافية تبلورت ضمن معطيات اجتما-ثقافية وابستمولوجية نابعة من ظروف تاريخية، أي محددة ثقافياً وتاريخياً، أو بالمصطلح الأجنبي المتداول culture specific و history specific. إذ إن من الصعب العثور على علم أو منهج صالح، دون تعديل، للتداول في كل أنحاء العالم وعبر التاريخ، أي متخط لحدود الزمان والمكان وملابسات البيئات الاجتماعية والثقافية.[2]

من هذه المنطلقات يمكن لنا أن نتصور ضرورة الدراسات البينية بوصفها مسعى منهجيا لتطويع الحدود بين التخصصات، وجعلها أكثر رخاوة أو سيولة، وأكثر شفافية وقدرة، من ثم على السماح باختراقات معرفية ومنهجية قادمة من تخصصات مجاورة أو حتى غير مجاورة. ينبغي تجاوز استقلالية العلوم باتجاه اتحادات ذات حدود متساهلة لا تطالب بفحص جوازات السفر وهويات المسافرين، ولا تقيم حواجز تفتيش يُسأَلُ فيها العابرون عن مؤهلات أو مبررات أو مسوغات عبورهم. ما نحتاجه هو تجاوز ما أسماه ميشيل فوكو فواصل الخطاب وصرامة التقسيم بين خطابات المعرفة والعلوم المختلفة ،بحيث يتاح لعالم الاجتماع مساءلة القضايا التاريخية والمؤرخ الدخول في معترك البحث الاجتماعي ودارس الأدب ميدان الدراسات الإعلامية. صحيح أن هذا موجود، لكنه موجود على استحياء، وأهم من ذلك دون بصيرة علمية كافية، وهذه المسألة الأخيرة غاية في الأهمية وتقتضي توضيح المقصود بتسهيل الحدود، فليس من السهل، بل لا يجوز، أن يلقي كل من شاء بتنظير ما أو يتوصل إلى نتيجة ما في علم أو ميدان لم يبذل جهداً في معرفة معطياته وحدوده. لا ينبغي، بتعبير آخر، فتح باب القول في كل شيء تحت مظلة الدراسات البينية.

(2) حول موضوع التحيز، ينظر مجموعة الأبحاث في كتاب "إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد" ت. عبدالوهاب المسيري، جزآن (هرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1415 – 1995).

فهذه الدراسات إذا كانت ضعيفة في بناها الأكاديمية، فإنها يمكن أن تكون غاية في الفوضى إن نحن فتحنا أبوابها دون ضوابط. إن صرامة الحدود الخطابية التي تفصل العلوم وتحدد مسوغات القول في علم ما، حسب فوكو، لا تعني إلغاء كل الحدود وتمييع المعالم بحيث يحل الخلط الجاهل محل التمازج العارف. ما نحتاجه إذا هو حدود لينة أو مرنة، لكنها تظل حدوداً بمعنى الضوابط الموجود في بنية كل علم أصلاً. إن الدراسات البينية ما هي إلا العلوم المستقلة وقد اقتربت من بعضها بعضا وتمازجت، لكنها لم تفقد من ضوابطها العلمية ومقتضياتها البحثية إلا ما يقتضيه الامتزاج من تصورات مبتكرة لأوضاع استجدت نتيجة للتقارب المشار إليه. وحين نقول الضوابط والمقتضيات فإننا نشير إلى مسائل إجرائية شائعة في البحث العلمي إجمالاً لكن لها خصوصيتها في العلوم الإنسانية. وتلك المسائل معروفة لدى الدارسين، فهي تشمل: القراءة المدققة، والمقارنة بين المعطيات، وإقامة الفرضيات واختبارها، وضبط المراجع وموثوقيتها، إلى غير ذلك مما لا حاجة إلى عرضه كاملاً.

إبان القرن العشرين تطورت ميادين للبحث في العلوم الإنسانية ليست عادة مما يقصد بالدراسات البينية، أي أنها ليست ناتجة عن تداخل علمين أو أكثر على النحو المعلن من اشتراك الاهتمامات والمناهج كما في الإشارة إلى علم النفس الاجتماعي أو التاريخ الاقتصادي. فهذه الميادين تيارات وحقول بحثية/ منهجية متعددة المصادر، أي أنها تستقي مادتها من علوم مختلفة وتترك آثارها في تلك العلوم. ومن بين تلك الميادين أو التيارات، أو من أبرزها ميدانان: السميولوجيا والبنيوية. هذان الميدانان متعددا العلوم بطبيعتهما، فالسميولوجيا تجمع الدراسات الاتصالية مع التحليل الثقافي إلى جانب التفسير أو الهرمنيوطيقا والدراسات الأدبية أو النقد الأدبي. وكذلك هو الحال مع البنيوية التي انطلقت من الدراسات اللغوية لتشمل الأنثروبولوجيا (أو علم الإناسة) والدراسات النقدية الأدبية وغيرها. في مثل هذين التجمعين تأخذ الدراسات البينية معنى مغايراً أو شكلاً مختلفاً عن المتعارف عليه، إذ يؤكد التجمعان/ التياران الصلة الجوهرية بين العلوم الإنسانية وقابليتها الدائمة للتداخل ورفد بعضها بعضا لاسيما في انطواء كلا التيارين على رؤى وأدوات منهجية تمكن الباحثون من توظيفها في عدة مجالات. مع أن أولئك الباحثين لم يكونوا دائماً وفي البدايات خاصة مدركين لعملهم تحت مظلة واحدة. يقول رولان بارت، وهو من أوائل مطبقي البنيوية والسميولوجيا في دراسة الأدب

والثقافة بشكل عام في مقالة مبكرة بعنوان "النشاط البنيوي":

ما البنيوية؟ إنها ليست مدرسة، ولا حتى حركة (ليست كذلك حتى الآن)، فمعظم المؤلفين الذين يوصفون عادة بهذه الصفة غير مدركين أن مبدأ أو التزاماً يوحدهم. (Roland Barthes، 1971: 1196)

غياب الإدراك هذا إحدى سمات الكشوفات العلمية والنقلات المعرفية التي تحدث نتيجة لتضافر جملة عوامل عمل عليها عدد من مؤرخي العلم والمفكرين مثل: الأمريكي توماس كون والفرنسي ميشيل فوكو، الأول تحت مسمى "البارادايم" أي النماذج أو الإبدالات، والثاني تحت مظلة "الإبستيمي" أي الحقل المعرفي، وكلاهما يسودان في فترات أو حقب، ويؤثران في التفكير السائد.[3]

لكن هذه النقلات والثورات المعرفية والعلمية تأتي ضمن متوالية تاريخية ومعرفية من النقلات ضمن حركة ثقافية وحضارية متجانسة أو عالية التجانس، هي هنا الحضارة الغربية وثقافاتها، ولذا فإننا لا نكاد نجد إضافة تذكر لثقافات غير غربية في ابتداع أو تطور أي من الحقول البحثية المشار إليها. ومع أن السنوات الأخيرة شهدت بزوغ عدد من الحقول البحثية والإسهامات العلمية والفكرية لباحثين وعلماء من العالم الثالث، فإن التيار العام والسائد ما يزال غربياً، الأمر الذي يعيدنا إلى الملاحظات التي جاءت في البداية حول علاقة الثقافة العربية بالتطورات العلمية والبحثية، ابتداء بتبني العلوم الحديثة واستمراراً نحو

(3) في كتاب توماس كون Kuhn "بنية الثورات العلمية" (1962) وكتاب فوكو "الكلمات والأشياء" (1966)، وقد ترجم الأخير إلى الإنجليزية بعنوان "نظام الأشياء" (1970) توافق لافت من حيث الوقوف على حركة الفكر، سواء العلمي الطبيعي عند كون أو الإنساني عند فوكو، وتوصلهما إلى وجود ما يشبه البنى من الأفكار أو الكشوفات المترابطة داخلياً التي تؤكد أن الكشوفات والنقلات تحدث من داخل تلك البنى وليس من خارجها، أي من خلال منطق داخلي لا تحكمه المعرفة أو العلم وحدهما وإنما تحكمه نوازع ومعتقدات مختلفة هي ثقافة العصر. بل إن توافق المفكرين المشار إليهما في التوصل إلى نتائج متقاربة هو بحد ذاته دليل على وجود بنية مشابهة تفسر توصلهما إلى تلك النتائج، تماماً كالظواهر التي يفسرانها من خلال نظريتيهما وما تتضمنان من جهاز مفاهيمي ومصطلحات. ينظر: Thomas Kuhn: *The Structure of Scientific Revolutions* (Chicago, the University of Chicago P, 1962); Michel Foucault, *The Order of Things: An Archeology of the Human Sciences* (New York: Vintage Books, 1973). الكتابان مترجمان إلى العربية، كتاب كون ترجمه شوقي جلال ونشر ضمن سلسلة عالم المعرفة الكويتية و كتاب فوكو ترجمته "مجموعة" من المترجمين ونشرته دار الفارابي.

تبني تعالقاتها المتمثلة في الدراسات البينية، فما زالت الحاجة واضحة إلى نقلة كبرى في كيفيات التفاعل مع المعطيات المعاصرة على الصعد كافة، سواء تمثلت في موقف المؤسسات أو جهود الأفراد، لكي نشهد صعوداً جاداً للبحث العلمي سواء في العلوم الإنسانية أو غيرها.

المراجع :

-Ernest Robert Curtius, *European Literature and the Latin Middle Ages* tr. Willard R. Trask (Princeton: Princeton UP, 1953) p. ix.

Edmund Husserl, *Phenomenology and the Crisis of Philosophy*, p. 157. – كتاب هوسرل المتعلق بأزمة العلوم الأوروبية هو:

"أزمة العلوم الأوروبية والظاهراتية المتعالية" (1936)، وهو كتاب لم يكتمل، ينتقد الأساس الإمبيريقي والطبيعي للعلوم ويدعو إلى علم للعقل والروح يتأسس مستقلاً عن الأسس الطبيعية.

-Roland Barthes, "The Structuralist Activity," in Hazard Adams, *Critical Theory Since Plato* (New York: Harcourt Brace Jovanovich, 1971)p. 1196.